النص والسلطة

المسلمون فى الولايات المتحدة مبتلون - منكوبون - بمشكلة السلطة، ولا أعنى بهذا السلطة السياسية أو الاجتماعية- وإن كانت هذه مشكلة هى الأخرى- لكنى أعنى سلطة ونفوذ النص. والمشكلة ليست نابعة من غياب إطار مؤسسى تنتقل من خلاله سلطة النص، بل تكمن فى تطوير إطار من المفاهيم يتم وفقًا له الاقتراب من النص والتعامل معه، وبناء موقف منه وتقديمه.

الإسلام يعرّف ذاته بالرجوع إلى الكتاب - القرآن الكريم - وبالتالى إلى نص، والمسلمون فى المنطوق الإسلامى- شأنهم شأن المسيحيين واليهود- يتم تعريفهم بأنهم أهل كتاب سماوى، لذلك يعد النص أقوى إطار مرجعى أساسى فى الإسلام، ويستأثر بدرجة عالية من السلطة والاعتمادية أو المصداقية[٢٥]، ولقد بلغت الحضارة الإسلامية شأوًا عظيمًا لما تميزت به من إنتاج أدبى رفيع المستوى على نحو مذهل، وبخاصة فى ميدان الشريعة[٢٦]، وما من شك فى تنوع وتعدد العوامل التى أسهمت فى هذا الإنتاج، بيد أنه من الواضح أن النص جاء ليشغل دورًا محوريًا فى تشييد الإطار الأساسى المرجعى لسلطة دينية وقانونية فى الإسلام.

والنص يمثله إما قارئ أو شارح، وثمة علاقة توتر حتمية بين النص ومن يمثله، والمشكلة يمكن صياغتها بمفهوم المواجهة بين النص المتعدد المعانى والأحكام وبين شخص يستبد بمعنى وحكم واحد ويوهم الناس بأن هذا فقط هو المعنى المقصود من النص، ويقوم المسلمون فى الولايات المتحدة بتطوير تقاليد خاصة بهم فى تناول النص الإسلامى وتفسيره وتقديمه، وهى ليست

بالضرورة تقاليد فريدة فى البيئة الأمريكية، بل إنها فى حقيقة الأمر مستعارة من ثقافات أخرى، علاوة على ذلك، فالقضية المطروحة للتمحيص على صفحات هذا الكتاب ليست استثناء من مداولات المسلمين الأمريكيين، بل إنها مثال يجسد التوتر بين النص وقارئه، وبين المرجعى والاستبدادى.

عند تأمل هذا التوتر ينبغى أولاً طرح السؤال التالى: ما الذى يمكن اعتباره مرجعيًا فى حياة المسلمين بالولايات المتحدة؟

الإجابة عن هذا السؤال تقتضى إلقاء الضوء على كيفية فهم وتقدير النص المرجعى، وكيف يتسنى للمرء تفادى الانزلاق إلى الاستبداد بالرأى عند تقديمه للنص، وهل يمكن لمداولات المسلمين الانتفاع بمرجعية النص دون الانغماس فى التسلط؟

إن تعريف «المرجعى» مسعى فردى فى الغالب، فكل إنسان يعلم ما يعتبره مرجعيًا فى حياته، من ذلك أنه يعتقد فى مبادئ أو نصوص معينة ويعتبرها مرجعية. وكلمة «مرجعى» أعنى بها مجموعة المبادئ والنصوص أو كل منطوق مما يمكن اعتباره ملزمًا فى شأن مسألة أو عدة مسائل فى حياة إنسان، وعلى قدر اختلاف عامة الناس فى النظرات والمشارب وما إلى ذلك تختلف الأمور التى يعدونها مرجعية، بالإضافة إلى أنهم ليسوا متماثلين بالضرورة فى العيش بموجب ما يعتبرونه مرجعيًا، بمعنى أننا قد نرى إنسانًا يصرح بأن مصدرًا معينًا مرجع بالنسبة له، دون أن يكون لتصريح من هذا القبيل تأثير حقيقى فى حياته الواقعية. ومع ذلك فسواء أكان المرء متسقًا مع نفسه فى اتباع الأوامر المرجعية أم لا، فإنه يرغب فى تقديم أو نقل رؤيته للمرجعى إلى غيره من بنى جلدته، وفى مثل هذا الموقف لابد وأن يقع فى المحظور حين يحيل رؤيته تلك إلى منطوق استبدادى.

هكذا يستحيل ما فى النص من مرجعية إلى تسلط واستبداد بالرأى، بسبب الرؤى الذاتية التى تكون غالبًا فى خصوصية مزاجية، وتصبح هذه الرؤى هى

الكلمة النهائية المانعة فى تحديد معنى نص مرجعى أو تحديد المقصود منه. وقد يذهب مقدم النص إلى مدى أبعد، فيفرض نفسه فوق النص، مالم يكن منضبط النفس ومسترشدًا بمنهج علمى يعينه على جمع أجزاء البرهان وتقليبها على جميع الأوجه، بل إنه قد يحل محل النص فى واقع الأمر إذا افتقد القدرة أو الرغبة فى التمييز بين اختياراته السياسية والاجتماعية الذاتية وبين دليل النص أو ربما أدلته المتعددة[٢٧]. لهذا يصبح النص المرجعى ضيق المعنى خاضعًا لأهواء مقدمه، أى أن النص يتعرض لعملية اختطاف على يد مقدم النص وتكون النتيجة إذعان المرجعى للاستبدادى.

فى مؤتمرات المسلمين وندواتهم ومطبوعاتهم يصادفنا سيل متدفق من الرؤى والآراء غير الممحصة تمحيصًا دقيقًا، وإن كانت تجتمع على أن القرآن والسنة هما المرجعان اللذان يشتملان على حلول للمشاكل جميعًا، مع أن هذا فى الواقع ليس إلا بداية التحقيق والبحث، فمن الأهمية بمكان الانتباه إلى من يقدمون القرآن والسنة للناس وإلى كيفية تقديمهما كمصدرين مرجعيين.

والذى يحدث بالضبط حين يتصدى متحدث لمعالجة مشكلة ما، أنه يستشهد بآيات من القرآن، أو بأحاديث نبوية، وربما يضيف إلى ذلك حكاية طريفة من السيرة المحمدية، ولايكون الغرض من الاستشهاد وسرد النوادر فتح باب المناقشة، وإنما تزيين وتجميل حديثه، ويظل المتحدث محتفظًا فى يده بمفتاح النقاش وباختيار ما يراه ملائمًا لزخرفة الحديث، فإذا كان يتسم بالسطحية وضحالة الثقافة وصعوبة الفهم أو سوء النية سيعمد إلى التغافل عن النصوص المرجعية الكثيرة التى تخالف رأيه التسلطى، وسوف يزعم أن للنص الذى استشهد به معنى واحدا فى غاية الوضوح والدقة، ويستبعد كل ما يدل على غير ذلك، وبعد فرض رأيه على النص يضع نفسه على قدم المساواة معه، ويصبح النص المرجعى جزءًا من المتحدث الذى يتبوأ مقعده من الاستبداد عندئذ، ويغلق باب الاجتهاد والاستنباط ويجعله غير متاح لغيره، مع أن

الأصل أن جميع النصوص محتملة للاجتهاد واستخراج الأحكام مادامت متاحة لجميع القراء والشُراح، هكذا يصبح معنى النص وما قدمه المتحدث من تفسير له شيئًا واحدًا، ويتحول المصدر من نص محتمل لمعانٍ متعددة إلى نص مغلق يتفق وطبيعة الفهم الضيق من المتحدث.

ومن أجل إبراز هذه المشكلة وإلقاء المزيد من الضوء عليها، سوف أركز على نموذج واحد من مشاورات وتبادل آراء المسلمين المعاصرين، وهو نموذج أقدمه كدراسة حالة؛ لأنه يمثل التيار الحالى من تبادل آراء المسلمين ومناقشاتهم، ولولا أنه نموذج كاشف لطريقة المسلمين المعاصرين فى مناقشة أمور دينهم، لما استحق كل الاهتمام والعناية، فأهميته مستمدة من كونه نموذجًا قياسيًا غير استثنائى، يبين بجلاء المنطق الشائع فى أوساط مسلمى الولايات المتحدة، ويتضمن فتوى أصدرتها جماعة دينية فى الولايات المتحدة حول واقعة ذاعت شهرتها، ولما كان الأصل فى الفتوى أنها تمثل قانون الله وهى بهذا تغلق نصًا يمكن للمتجهد أن يستخرج منه أحكامًا أخرى، فإن فتوى الجماعة تشكل مثالاً مناسبًا على عملية تحويل المرجعى إلى ظلم واستبداد فرضتهما الإرادة والأهواء.

***